تحولات

مجموعة قصصية

محمد فرحات

دار مرايا الشرق للنشر والتوزيع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩/١٤٣٢٥
ISBN: 978-977-85432-1-0

١
تحولات

أنوارٌ، وكهاربُ حمراءُ وصفراءُ وخضراءُ، تُحيل ظلامَ الليلِ الأسود إلى ألوانٍ ورديةٍ مبهجة.

نغماتُ كمانٍ مرتعشةٍ، راقصةٍ، متحررةٍ بلا رقيب، تنثر ضحكاتِها العاليةَ اللامبالية، ليجيبَها الباصُ بنغماته الذكورية الغيورة، يطاردها بيأس العاشق الولِه، المذبوح بالتجاهل.

يحاول التيمباني، بإيقاعه النابض الحار، الصلح؛ يهمس للكمان، يسرّ لها بلوعة الباص وعشقه.

تتمادى نغمات الكمان في لامبالاتها، مجيبةً بضحكة لعوب:

«كثر هم قتلاي!»

صحافُ الشربات تغدو وتروح، تتلقفها الأيدي العطاش لرحيق الورود والعشق.

أطقم الخدم ببذلاتهم الأنيقة، المزَينة أعناقهم ببيونات حمراء، المستأجرون من فندق رمسيس هيلتون،

يتسابقون بهمة ونشاط في تقديم الأطعمة والمشروبات، يرصّونها بأناقة فندقية من ذوات النجوم الخمس، لتتناولها أكف الفقراء والمساكين والمجاذيب.

تتجول الزكية في أنحاء الخدمة، متفقدة، منبهة، مرشدة، مبتسمة، لينة الجانب.

تخص أطفال الفقراء المصاحبين آباءهم، والمشردين، والأيتام بالحلوى، آمرة الخدم بإكرامهم.

يتبعها إبراهيم الملقب بالعمدة المتعافي، يخفق قلبه بفرح ونشاط صمام جديد، واهبًا حياة جديدة لخافق عاشق.

وفي يـده أوراق وقلـم، يكتـب أسـماء الأطفـال، يضاحكهم ويضاحكونه.

العمدة قد عاد ثانية بعد طول غياب؛ عاد في ثياب عافية وبرء، بقلب فتي يستعد بكل عزمه لبذل المحبة لكل مخلوقات الله، بصدر وسيع رحب، رحابة العشق.

لا مبالٍ بألم جرح شقه يومًا مبضع جراح ماهر، ببهجة ليلة أصرت أمه الزكية على إقامتها احتفالًا بعودة ابنها ثانية.

ليلة ذكر ومدح وخدمة لم يشهدها يومًا حي الحسين، ولا الجمالية، ولا بين القصرين...

تراسل أبناءها لحضور الاحتفال الكبير.

تحضر الوفود تترى من الإسكندرية ووجه بحري.

هُنيهة، ويحضر وفد عظيم العدد والمظهر، يتقدمهم الصعيدي الوجيه إدريس السناري، أقدم أبناء الزكية، وأخلصهم، وأكثرهم بذلًا.

يتبختر وسط صفين من مصاحبيه كطاووس في كامل بهائه وزينته، ليصافح الزكية المرحبة الباشة بابنها الأكبر...

– ليه الغيبة الطويلة دي يا إدريس؟

«يجيب بلهجة صعيدية خالصة.»

– الأرض ومسؤوليات العمدية يا أمي...

– كنت خالي ومبسوط يا إدريس...!

– ما هي دعوتك يا أمي...

– ساعتها كنت دايمًا تقولي نفسي في ابتلاء النعم، وأقولك يا ولدي ده ابتلاء صعب، عارف؟

ساعات بقول لنفسي: يا ريته قعد جنبي على فقره، وألوم نفسي لأني طاوعتك ودعيت...

«يجيب إدريس منزعجًا.»

– هو أنا قصرت في حاجة يا بنت سيدنا الحسين؟!

– القرب يا إدريس، مش بس إجابة الطلبات... هنشوف يا ولدي، هنشوف...

ينصرف إدريس ووفده الصعيدي إلى الموائد...

وبعدما يفرغ الجميع من طعامهم، يسكت الإنشاد وما يصاحبه من نغمات، لتبدأ الحضرة الشاذلية.

صفوف طويلة على هيئة مستديرة؛ دوائر كبيرة تحتوي دوائر أصغر بداخلها دوائر أصغر، وهكذا...

وفي القلب منها الزكية، في عباءة سوداء، تعلو رأسها طرحة حريرية سندسية باهرة الاخضرار.

ويجلس عن يمينها إدريس، يلوح على وجهه الأسمر الوسيم علامات الحيرة، مشوبة ببعض حمرة الغضب.

يسترق ناظرًا بطرفه المضطرب إبراهيم، الجالس لأول مرة مشاركًا إدريس الصدارة.

تتعالى أصوات الذكر بالتدريج، مختلطة بنشيد منفرد يصدح به المداح والفنان والموسيقي الأشهر محمد الكحلاوي، ابن الزكية، ينشد بشجن باكٍ فائية ابن الفارض:

«مالي سوى روحي وباذل نفسه

من أجل من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتني
يا خيبة المسعى إذا لم تسعف»

وإبراهيم هائم في دنيا ليست كما الدنيا،

وإدريس تائه في كل أودية الدنيا، مساءلًا نفسه عن وضعية إبراهيم الجديدة.

والزكية ترمقهما من طرف خفي...

وبآخر طبقة ذكر، تقبض الزكية بيمينها على الميكروفون استعدادًا للحديث، ليصغي الجميع منتبهين لما ستقوله الزكية.

تصيخ الأسماع، تشرئب الأعناق، تخفت الأصوات، إلا من هديل حمامتين ترقبان من عشهِما المشهد.

وقد قبضت الزكية بالميكروفون:

– كان وِردي الذي لقنته لكم يا أحبابي هو إطعام الطعام وجبر الخواطر.

كان الإحسان للفقير والحدب على المسكين هو طريقي الذي ربيتكم عليه.

هل علمتكم تصعير الخد؟

هل علمتكم المشي مرحًا في الأرض؟

فما بال كل هذه الكبرياء التي استبدت بصدور بعضكم؟

أمن أجل حظ حقير من الدنيا؟

أولادي كثر في كل أنحاء مصر وخارجها،

وهذا ولدي إبراهيم العشماوي، العمدة، قد ابتـلي فصبر فنجح،

فكانت الليلة ليلته، وكان الاحتفال احتفاله،

ودعوتكم من سائر أنحاء مصر لتشاركوني فرحي بولدي إبراهيم العمدة.

(ينتفض إدريس السناري مغاضبًا، وكأنه قد قبض على عقرب في جبته الأنيقة، صائحًا:)

– فالصو يا أما! عمدة فالصو!

أنا عمدتك الحقيقي،

أنا ابنك الحقيقي،

أنا البكري،

أنا اللي عرفتك قبل ما حد يعرفك!

لا تلتفت الزكية له، تأمر الجميع بالوقوف والاصطفاف لتقبيل يد العمدة...

يتجمد إدريس في مكانه من هول ما قال وما يشاهد.

وكلما أقبل أحدهم مقبلًا يد العمدة، تأخر إدريـس خطوة، يصارع الحب غضب نفسه الحانقة.

تتهدم أسوار قلبه إثر هجمات نفسه الشرسة، يتأخر خطوة تلو خطوة،

يصل إلى بوابة الخدمة الخارجية، ونظرات الزكية الحزينة لا تفارقه...

يخرج إدريس من خدمة الزكية لا يعلم له وجهة، لا يدري أين يذهب.

سقطت كل العناوين من ذاكرته،

كل الأحداث التي مرت بحياته لا وجود لثمة إشارة لها.

وحدها الحضرة الأخيرة،

وحده وجه الزكية،

وحدها كلمات الزكية الأخيرة،

والعمدة بجوارها، تراوحهما عيناه.

تشير الزكية لمريديها بالانتظام في حلقاتهم الدائرية، تعطي إشارة البدء للطبقة الثانية من الحضرة.

يأخذ إدريس في الدوران بشوارع الجمالية،

ليعود ثانية إلى الخدمة، فيجد أبوابها قد اختفت تمامًا، وحل محلها أسوار عالية تلامس السماوات الأولى، أسوار منيعة لا منفذ إليها ولا مخرج منها.

يسترق السمع، فتذيبه أصوات المنشد، ونغمات الموسيقى الحزينة الشجية حنينًا واشتياقًا لوطنه المفقود.

يصغي السمع، فإذا كلمات الحضرة قد استغلقت على فهمه،

وكأنها تنشد بلغة غير العربية.

يطوف حول أسوار الخدمة العالية،

وفي كل دورة تأخذه أزمان طويلة لا تحسب بساعة،

ولا بيوم، ولا بسنة؛

دهور كعمر الإنسان على الأرض.

تأخذه تقلبات الحياة،

وأطوار أعمار الإنس كلهم،

وكل طور بدورة حول الأسوار المنيعة العالية.
ومع كل دورة تسقط قطعة من ملابسه:
تسقط عمامته مع دورة الغرور،
ثم عباءته مع دورة الجشع،
فدورة الغضب،
والحسد،
والشره،
والتراخي،
والفسوق؛
حتى يصير عاريًا تمامًا.
تعتصره مشاعر الندم حينما تتقادم به الدهور،
ندم يمتص ما تبقى من عافيته وعمره.
يأخذ في النداء باسم الزكية:
«أما من فرصة في الرجوع؟
أما من ثقب إبرة في تلك الأسوار العالية المستحكمة؟
أمي... أمي... لم تخلّيتِ عني؟
خطأ واحد جر كل تلك الخطايا؟
قتلني الندم...
هل من توبة؟
أما من ثغرة في تلك الأسوار؟!»
تلوح من بعيد ثغرة في الأسوار،
يشع منها ضوء كفجر مشرق،

ينبجس من غُلسة دامسة طالت لدهور.
بالكاد تحمله قدماه،
كليلتين واهنتين، مثقلتين بكل أزمان كئيبة الوطء،
سحقت هامته التي علت يومًا.
يقترب من الأسوار،
يعلو نداؤه الصارخ،
يسقط عاريًا، باكيًا، نادمًا،
تحت أسوار خدمة الزكية.
تنتهي الطبقة الثانية من الحضرة،
يجهش إبراهيم العمدة بالبكاء، راجيًا الزكية أن تسامح إدريس.
فتبتسم الزكية، مربتة على ظهر العمدة:
– أخوك إدريس بعيني يا ولدي.
يهرول العمدة ليحضر الطعام،
وبعد فراغهم، يحضر إبريقًا ممتلئًا بماء الورد
ليغسل أيدي إخوانه،
غير منقطعة عبراته.
تأخذ رياح الخريف المودع ورقة صحيفة قديمة،
فتطير،
ويتضح من بعيد مانشيت تحقيق على صفحة كاملة:
«لغز اختفاء العمدة الصعيدي،
الوجيه إدريس»

٢

إخلاء طرف

وقع إذن ما كنت أخشاه، وفي آخر أيام انتدابي أراد من يطلقون على أنفسهم رؤساء أن يزيدوا لأنفسهم يومين ليتسلموا أجر يومين زائدين لم يعملوا فيهما بقدر مثقال ذرة. ما علينا، فهم رؤساء فليدلّسوا كما أرادوا، فالورق ورقهم وكذا الدفاتر، وهكذا أحوال البلاد منذ أيام (أبو العلا) وزوجـه الحسـناء سـعاد حسني.

ما يهمني هو حصولي على إخلاء طرف، حتى لا أقع بورطة العام المنصرم، حيث حُقِّق معي بحجة عدم حضوري المهمة إياها، ولما أقسمت يمينًا مغلظة بأني كنت أول من حضر، واسألوا باب المصلحة الحديد، والذي كنت أول من يمسك مقبضـه فاتحًـا. ولأن الرؤساء فعلوا العام ما فعلوه العام الماضي، ولأن المؤمن لا يُلدغ من ذات الجحر مرةً ثانيةً، فإني قد ثرت ثورة، وصعدت على الدكة، لفظ يطلق على ما يجلس عليه التلامذة الصغار، وأخذت أشرح للزملاء الحال ومغبة المآل إذا خابوا ورجعوا من غير إخلاء طرف، وأخذت أشوّح وأجعّر كما الرفيق لينين يوم رجوعه من سويسرا لاقتلاع السلطة من المناشفة، وتخيلت أعلام البلاشفة الحمراء، وهتافات الرفـاق تلهج باسمي.

وبعد خطبة عصماء عن الأهمية المصـيرية لإخـلاء الطرف، انضم الرفاق لأقودهم نحو الرئيسة، وهي

فارعة حسناء طيبة الريح، تلغمط وجهها بالأبيض والأحمر والبنفسجي، تتكلم في همس.

فدخلت عليها، ونظرت خلفي فإذا الرفاق قد انفضّوا، فقلت لها متألمًا من الخذلان:

"عاوز إخلاء طرف".

فإذا الصوت الهامس ينفجر زعيقًا وشخطًا، وإذا الحسناء تقوم كأحمس على عجلته الحربية، ويخرج الرفيق حنفي من تحت جلدها الرقيق ويزعق:

"ما فيش إخلاءات!".

وأنا، وللحق، أحترم الجمال وأجله، فانصرفت وأنا أبرطم وأبرطم، وتذكرت يوم قُبض على عرابي بالفنلة واللباس، وكيف فعل خنفس باشا فعلته النكراء.

فذهبت إلى مكتب وكيل الوزارة أشكو وأطالب بحقي المقدس في إخلاء الطرف، فحوّلني مدير مكتبه إلى مدير المديرية. وحينما نطقت باسم الإخلاء إذ قامت قيامته، وقد كان وقورًا منذ ثانية أو لمحة بصر، وكان قد جالسه ــ ولم ألحظه ــ الرئيس الأعلى للغادة الحسناء، السيدة التي تبدت منذ قليل عن السيد حنفي، لاصقًا فمه في أذن المدير الأكبر، فقال لي آمرًا:

"اطلع الدور الخامس على مكتبي"، يريد الانفراد بي.

فقلت لنفسي: "لو انفرد بك، لربما زعزع عقيدتك المقدسة بالإخلاء...".

فقلت: "أنا في مكتب مدير المصلحة العام".

فانفجر المدير العام:

"التزم بروتوكول الكلام مع رئيسك يا أفندي".

طبعًا سرحت في كلمة بروتوكول تلك، وأخذ يشرح ضرورة مراعاة البروتوكول والإتيكيت في التعامل، وأن سبب الخراب هو عدم تعلمنا البروتوكول. وقد انفشخت أساريري بابتسامة بلهاء، وحول أقرب ما يكون لحول عبد الفتاح القصري. فعلًا قد ظلمت نفسي بعدم دراسة البروتوكول.

ذهبت إلى البيت مهمومًا ولم أستطع القيلولة كما تعودت، فقمت وكتبت شكوى بليغة سأقدمها للنيابة الإدارية، وزوجة سقراط المسموم تلمزني بلسانها وهي تقطع البصل إربًا، لا يقطع لمزها إلا شنة من هنا أو شنة من هناك.

دبجت الشكوى تحت ضغط لمز زوجة سقراط اللعينة وهمزها ولومها كسلي، وأني لو كنت قد اتلهيت بدرسين خصوصيين زي الناس، أو فتحت بلاي ستيشن والعيال خدت إجازة، وإن الكتب لحست دماغك، وإخلاء إيه ده اللي إنت قاتل نفسك عليه.

ولكني أصبحت، وليس الصباح على إطلاقه رباحًا كما يقولون، وبكرت حتى وصلت مقر النيابة، فلم أجد موظفًا لاستلام شكواي، وقال لي الساعي غاضبًا:

"عاوز إيه يا جدع إنت؟!".

وبالرغم من بداهة الإجابة، وأني ما جئت للتمتع برؤية سحنته العزلاني، أو عينيه اللتين في أطرافهما حَوَر، قلت:

"جئت لأسلم مذكرة للموظفين".

قال لي:

"إنت فاكر نفسك في نيوزيلندا؟! على الساعة تسعة ونص كده".

سألت نفسي: "وليه نيوزيلندا بالذات؟! خاصةً وأنها يعني مش زي ألمانيا أو اليابان في الالتزام، يمكن علشان يعطيني دليلًا دامغًا على عمق ثقافته...".

المهم، نزلت في باحة مجمع المصالح، وإذا روائح الطعمية والفول تغزو أنفي، وأنا من انشغالي بقضية إخلاء الطرف لم أكن قد طعمت لقمة منذ ساعة ما تلبستني روح النضال والثورة من أمس.

فجلست عند إحدى عربات الفول، وقلت لنفسي: "لا بأس من استراحة محارب، فالنضال يحتاج لبعض الفول والبصل والشطة...".

فجاء الطلب فولًا وطعمية وسلطة وجرجيرًا وشرائح بصل وخبزًا صبوحًا، فانقضضت على الطعام انقضاضًا، انقضاض أسد لم يذق طعامًا منذ أيام، وطلبت طلبًا آخر، وشايًا ثقيلًا، ومع سيجارتين سوبر تبخرت الثورة مع دخان السجائر، وغزتني روح تسامح عميق لا أدري من أين جاءت، لعلها جاءت من تلك الجرعة الزائدة من الفول والبصل.

ورجعت بالمذكرة ولا أدري أين رميتها، ونمت تحت تأثير البصل نصف نهار كامل بلا حراك... وعلمت أن الفول أفيون الشعوب حقًا، وكانت هذه نهاية قصتي مع الإخلاء.

٣

على قد الشوق

ضحكات مختلسة مباغتة تغزو وجهه المتصنع الجد بلا مناسبة، وقتئذ كانت الكثير من ألحان أغاني حليم لاتغادر خيال أذنيه، وحسرات بلا طائل، على مفقود بلا رجعة، من عامين إلا قليلا، أو عامين وقليلا.

"على قد الشوق إللي في عيوني يا جميل سلم...".

الأبيض على الحواف البعيدة، والوردي دوائر متكررة، والبنفسج دائرة وأخرى، ووردة حمراء واحـدة في القلب من الباقة التي أخذ يعدها طويلا بيد متأنقة ترتعش إثارة.

"أنا ياما عيوني عليك سألوني وياما بتألم..."

ببذلته المتأنقة، وحذائه الامع، ومكعب من شيكولاتتها المفضلة، يصل للملتقى...

- ألو...أنا وصلت ...

-أهلا...كلها نصف ساعة...

ينتظر، يتحرك القلق، يشعل سيجارة، يتذكر أنها ربما لا تحب رائحة الدخان، يخرج حبة نعناع يمتصها بعد فراغه من آخر نفس.

طال الانتظـار وبمـرور كـل نصـف سـاعة يشـعل سيجارة، فحبة نعناع...

سيجلسان على مقهى فاخر، يتحدثان عما تكتبـه، سيثني كثيرا، ستعجب مؤكدا بثنائه.

ست سجائر وست حبات نعناع، ولما تأت، انتظر الورد كثيرا، تتفتح الحمراء أملا في مصافحة يدها.

ثم...ثم تأتي، يقف مرحبا...وفي تلك المسافة من بقعة ظهورها ومقدمها عليه، تتزاحم الأفكار، وتتصارع الكلمات؛ بأيها يبدأ، كيف يناديها؟!، كيف ستبدو ابتسامته؟!، وهل ستظهر تلك التجاعيد الناشئة حديثا على جنبات عينيه؟!، وهل...وهل...

يفصلهما متر بجسد طوله مئة سنتيمتر، تنحرف عن مكانه، كأنه لم تره، تنحرف بعيدا، تتباعد بسرعة سنة ضوئية...يذهل عن باقة الورود المنتظرة بجانبه، يعدو خلفها، وقدماه ترتعشان خيبة، تكلان تحت جسده المنهزم...بأي الأسماء يناديها...

"وبخاف لتصدق يوم للناس واحتار

باوصف للناس الجنة وأنا في النار"

تأخذ في الأفول متخفية وسط الحشود، بشعرها الكستنائي القصير، وجاكيتها الأسود، وتنورتها القصيرة، وبوطها الطويل...بأي الأسماء يناديها؟!

واليوم بعد مرور عامين وشهور، بملابسه الرثة، وحذائه الكالح، وبقايا شعر بني يحارب وسط غابة متآمرة من الشعر الأبيض، بقطار مزدحم للغاية يقف منتظرا محطة وصوله...

"شبابي الغالي ضيعته... أناجي فى الهوا اسمك

وأملي لما صورته... فى أجمل صورة كان رسمك"

يقول جار القطار لرفيقه عن آخر...

"بعد ما شاب...عاوز يحب ويتحب...حبه برص...الراجل من دول بينهبل في آخر أيامه...قال عاوز يحب قال...!!"

تنفجر الضحكات المختلسة ضحكا هيستيريا، يلفت أنظار الركاب إليه...يكرر "قال عاوز يحب قال..."

يصل متأخرا جدا عن مقر عمله الردئ...

"على قد الشوق إللي في عيوني يا جميل سلم"

٤
كأس مُترعة

يستيقظ كل صباح كمن يسحب نفسه ثقيلاً من حفرة عميقة لا قرار لها. ينهض ببطء، يتحسس ندبة الخرطوش العميقة عند كتفه، ثم يضغط على صدره براحته ليتأكد أن رئته ما زالت تعمل... ولو بالكاد.

كل نفس يأخذه يذكّره بيوم الركض في الشوارع وسط الدخان الرمادي، يوم ابتلع الغاز حتى ظن أن رئته ستنطفئ.

يجر جسده الثقيل إلى وظيفته القديمة؛ ذات المكتب المعدني البارد، وذات المروحة التي تدور كعجـوز تتنهد، وذات المدير الذي كان يحذره أيام الثورة من «وجع الدماغ».

لكن العجيب أن الرجل نفسه صار الآن من أشد المدافعين عن «مكاسب الثورة»، ويفاخر بصورته مع المسؤول الجديد الذي كان بالأمس من ألد أعدائها.

نفس المكتب، نفس الكرسي الخشبي المائل ذي الأرجل الأربع إلا قليلاً، نفس الروائح العالقة منذ عشر سنوات... كأن المكان نفسه يرفض أن يعترف بأن ثورة مرت من هنا يوماً.

زملاؤه الذين لم يشاركوا في شـيء صـاروا الآن يرفعون رؤوسهم ويتحدثون بثقة جديدة؛ أحدهم صار مديراً، وآخر أصبح مستشاراً، وثالث يفاخر بأن «البلد اتغيرت»، كلهم ركبوا الموجة في اللحظة العبقرية المناسبة.

وكان يبتسم لهم بصمت... ابتسامة شخص يعرف أن البلد لم تتغير، ولا هم... ولا هو.

في المساء، بعد أن انتهى من عمله الثاني محاسباً في أحد الأفران، عاد إلى البيت، فوجد أباه جالساً أمام الشاشة، يرصد الوجوه الجديدة. يعرفها جيداً، فهم كانوا رفاق ابنه ذات يوم، لطالما سهروا معه حتى الصبح، يحرك مسبحته ببطء.

مـا إن رآه حـتى تحـدث بـذات الحـديث والنـبرة والسخرية التي يعرفها جيداً:

- كل يوم يا خويا مظاهرات وضرب وخبط وسجن... وفي الآخر؟

هم خدوا المناصب والفلوس، وإنت زي ما إنت.

يا ابني ما عمر الـ... ما نفع نفسه.

إنت كنت فاكر نفسك هتبقى إيه يعني؟ هاه؟ خيبان زي أمك، الله يرحمها، بقى؟

كان يسمع، ويهز رأسه، ولا يرد.

لم تعد لديه قوة للشرح، ولا رغبة في الدفاع عن شيء لم يعد متأكدًا منه.

في تلك الليلة جلس في غرفته.

وضع الكأس والزجاجة أمامه على المكتب الذي ورثه عن أمه هدية نجاحه المبهر في الثانوية العامة: «كلية اقتصاد وسياسة وتبقى سفير يا حبيبي»، لكن كشف الخلفية الاجتماعية اللعين أحالـه إلى موظـف في أرشيف الوزارة.

ملأ الكأس عن آخرها، وترك الشراب يفيض على مهل، مغادراً حدود وجود كأسه.

لم يفكر كثيراً.

لم يسأل نفسه أية أسئلة.

كان التعب أقدم من السؤال... وأثقل من التفكير.

شرب بهدوء.

ثم تمدد على السرير، وترك ذراعيه بجانبيه.

كانت هناك راحة غريبة في السكون، راحة لم يشعر بها منذ سنوات.

ظل مستلقياً... لا يحرك ساكناً...

٥

يوم خطأ

ببدلته الكاروه، وبيبونه الأحمر، وتسريحته العندليبية، يعزف مقطوعته الموسيقية، ويتماهى بتعبيرات وجه حليم حين اندماجه الغنائي، وقد بلغ التاسعة والأربعين، ولم يتعد دور معلم موسيقى في مدرسة ريفية صباحاً، ومغنٍ وعازفٍ في أحد كافيهات عاصمة محافظته مساءً؛ يستمعون إلى عزفه أثناء تناولهم وجبة عشاء، أو ارتشافهم مشروبهم الليلي، وزبائن الكافيه يبدون انسجاماً ينبع في الغالب من حالة حنينٍ لأزمانٍ ماضية يذكّرهم بها صاحبنا. هو يعلم ذلك جيداً؛ كان في طفولته وشبابه يُعِدُّ بالكثير، ويأمل الآخرون به الكثير.

ومع انصراف آخر زبون، يتنفس الصعداء، يضع آلته في جرابها الجلدي بحرص شديد. يرن هاتفه، فتذكّره امرأته بطلبات البيت من خبز وجبن ولوازم ساندوتشات العيال. يستدعيه صاحب الكافيه، ويضع في يده ورقة مالية هي أُجرة ليلته.

وحين يهم بالانصراف، يفتح صاحب الكافيه حوارًا غير معتاد عن أحوال الكافيه، وتغير أذواق الناس، وضرورة تنويع فقراته الغنائية ما بين قديم وحديث.

يبتسم صاحبنا، ويلقي عليه تحية صباح اليوم الجديد.

مات حليم وهو ابن سبعٍ وأربعين عاماً في عز مجده، ولكن حفلته الأخيرة كانت تنم على تغير أذواق الناس؛ شغب ومقاطعة لغناء العندليب، بالضبط كحال طلابي المشاغبين.

ولكن القدر كان رفيقاً جداً بحليـم؛ كـانت حفلتـه الأخيرة، ومات بعدها بعدة أشهر.

وأنا أبدو بصحة جيدة، والموت بعيد جداً، ولكن أذواق الناس قد تغيرت بالفعل. يعني أُغني مهرجانات؟! لاحظ أن الجديد الذي يريده الناس هو حمو وبيكا، ليس حتى عمرو دياب.

يصل إلى منزله، يخرج آلته، يُدَوْزِنُها بعناية، ويغني «قارئة الفنجان».

ينهض لإعداد فنجان قهوة؛ لن ينام، فسوف يذهب إلى مدرسته حتى لا يضيع اليوم.

وحينما يصل إلى أبواب مدرسته لا يجد ما اعتاد عليه من توافد الطلاب وصخبهم، حتى إن باب المدرسة لم يُفتح بعد. ينظر إلى ساعته؛ ربما بَكَّر زيادة عـن اللازم.

دقائق تمر حتى يدرك أن أمس كانت ليلة الجمعة، وأنه جاء في اليوم الخاطئ.

٦
لقاء آخر

ما في الأمر أن زفيرًا خاصم رئتيّ، وأقسم ألّا يعود شهيقًا. هكذا أخذتني يقظة غريبة عن وعيٍ دائم الغياب، وعينٌ شاخصة أبدًا لأشباحٍ لا يعي وجودها غيري؛ أشباح خلف جذوع أشجار الكافور والجازورين، أشباح تشير إلى ملوحة من فوق فروع أشجار الجميز والتوت، أشباح مستلقية على ضفاف الترع، أشباح غائبة في ركود مياه المصارف الآسنة.

طيلة حياتي كنت شديد الحيرة في تفسير ما أراه ولا يراه غيري؛ اعتدت ذلك... هكذا فجأة انتقلت من عالم إلى عالم بخطوة واحدة. لا أخفيكم أنني كنت شديد الارتياع مما يحدث، وكيف تبدّلت كل الموجودات هكذا بلا مقدمات... أصوات كثيرة متداخلة أعرف أصحابها جيدًا، معظمها يبكي. في البداية لم أعرف سبب بكائهم حتى أشاركهم فيه، ولكن بعد قليل عرفت أنهم يبكون على فقدي... ياه ... هو الموت إذًا! ولماذا كانوا يخوفوننا منه؟! ولماذا كان رجال الدين دائمًا يتّجرون به كسلعة لا يملكها غيرهم؟! الموت رائق جدًا، صديق رقيق يحملك على ذراعيه، يحمل موجات غضبك المكتوم التي تحولت على مدار السنين إلى أسىً محبط، ودموع متحجرة في عيون غامت رؤيتها...

نعم، هي الإجراءات الروتينية المألوفة في تلك الحالات. سلّمتهم جسدي بلا مقاومة تُذكر، كمن يُلقي ثقلًا ناءَ كاهله به دهرًا طويلًا.

أرقبهم من قريب جدًا، أسمع دخيلة أنفسهم بوضوح؛ لعلها قدرة جديدة يكتسبها من هم في حالتي الجديدة. بعضهم يتحدث عن تفاهة وجودي وانعدام أثري، عن هزائمي الكثيرة وانسحاباتي المخزية، عن حزني الكثير غير معلوم السبب. قد أراح نفسه واستراح. كلهم كانوا ينهون مونولوجاتهم بهذه العبارة: «أراح واستراح!» مللت من ثرثرتهم فانصرفت سريعًا مكتشفًا هذا الوجود الجديد، ملقيًا نظرة أخيرة على جسدي الممدود، هذا السجن الذي لبثت بين أسواره الطينية سنين عددًا...

وجود جديد: نور ندي، هواء عطري، نهر وليد بلا ضفاف يتبعني كصديق حميم. كوخ جميل جدًا بلا باب، ونافذة صغيرة تطل على حديقة غناء بكل أنواع الزهور والورود التي أعرفها ولا أعرفها. عود! كيف علموا ولعي بالموسيقى وبالعود بالذات؟ شكرًا لهم! كنت دائمًا أتمنى لو أني تعلمت العزف على العود. احتضنت العود، أسحب ريشته، أمررها على أوتاره؛ فتصدُر ألحانًا بديعة، وكأني عازف ماهر لم يرَ العالم موسيقيًا مثله...

بأي ذاكرة أعيش؟ لا شيء في ذاكرتي الآن سواها. وهل صحيح أننا نعيش بذاكرة صور حياتنا السابقة؟ نعيش بذاكرة الرحم في الدنيا، وبذاكرة الدنيا في عالم ما بعد الدنيا. كنت دائمًا أرجو قربها؛ هكذا أشرقت بعينيها المكتحلتين، بحناء يديها الخضراوين، وببسمة بين غمازتيها. تهادت ذكريات الماضي وإشراقات المستقبل المأمول لحنًا بديعًا، وببسمة أخرى اندملت بقايا جراح وكأنها ما كانت يومًا.

جلست بجواري، تتبعها الفراشات والطيور الخضراء المغردة. جلست تستمع إلى عزفي ولحني، تُومِئ بعينيها لأتوقف عن العزف، لتكمل نغم الموسيقى بصوت أعذب من أعذب لحن كان؛ تتحدث حينًا، ثم تعاود السماع، ثم تشرع في الغناء. وببسمة نسيت ذاكـرتي الداميـة، هـزائمي المتكـررة، انسـحاباتي المخجلة؛ نسيت كل شيء غير بسمتها، لأفرح فرحًا ما حلمت به يومًا، فرحًا سرمديًا جديدًا غير منقطع بخوف فوتٍ أو فقدٍ. جلست تشاركني الخلود بجانب النهر المتدفق. أدركت مصدر النور؛ كانت إشراقة جفونها المكتحلة البديعة. الآن فقط أستطيع أن أشعر بالحياة...

٧

جاب الله

على رأس عشرين حِجَّة مضت، أتذكر يا جاب الله كيف شح النيل وانحسر، ففجعت الأرض جفافًا، وتشققت كأفواه فاغرة تنادي عطشى: "شربة ماء!"، ولما يئست ماتت، فطل من رحمها الجدب برأسه نذيرًا يصرخ، وأحاط الفناء بكل حي.

إلا أرض البندارية المترامية، المحيطة بخلوة الشيخ وبرْزَخه، كانت تتباهى خضرة، وتتفجر ريًّا، وتجود بغلة الصيف والشتاء معًا.

إيه يا بنداري، ألا تنقضي العجائب والكرامات؟ أم هو الابتلاء بالخير فتنة؟!

تفجرت الأرض عيونًا من ماء رائق بارد، بكر كأنه يلامس الأرض للمرة الأولى، فتحولت البندارية إلى واحة خضراء وسط أرض أجدبت وأمسكت عن الخير.

فلجأ الناس أفواجًا، بصغارهم وشيوخهم ودوابهم، إلى تلك الواحة المباركة، يحيطون كقيد محكم بخلوة العطية، ينتشرون بأكواخهم المعدة على عجل، تظللهم من سياط الشمس ومن لفحة الهجير.

ولم يكن من شغل لجاب الله سوى إطعام الطعام وبذل كل ما يملكون، مردِّدًا: "إنما نطعمكم لوجه الله، لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا."

هو الاختبار يا جاب الله، وكل يدعي وصلًا بليلى، فهل تجود ليلى بالوصل أم تضن؟

كان يروح ويغدو خادمًا مطعمًا، يعاونه الأولاد والأحفاد.

شع وجه جاب الله بالنور، كأنه استعار وجه القمر، صار واحدًا من الأبدال، أمان الأرض، وونس الغريب، وملاذ الطريد، ولقمة الجائع، وشربة الظّمآن، ورحمة الله على الأرض.

وحان وقت الالتزام. كيف يا جاب الله، ولم يعد في الخزائن قطعة فضة واحدة؟ كيف يُطالَب الفلاحون بأنصبتهم من الضرائب وهم يتكففون الطعام والشراب؟

صعد المنبر الكبير، وأثنى على ربه وحمده، وصلى على نبيه وسلم، وأعلن ألا ضرائب ولا التزام هذا العام.

انتفضت دائرة الحكم في العاصمة، حيث بلغ ثمن الرغيف ألف قطعة فضية، واشترى أحدهم حارة كاملة بطبق من دقيق القمح، فسميت إلى الآن "حارة أبي طبق".

اعتبر الحكام تصرف جاب الله عصيانًا وتمردًا، وجهزت التجريدة لتأديبه، وهلت طلائع الجند بأيديهم السياط والسيوف على صهوات الخيول، ليقابلهم الفلاحون بالعصي والنبابيت والحجارة، ويتدرعون بأغطية القدور، ويقيمون خطوط الدفاع بالطنابير وفلق النخل.

—

وعلت الصرخات مدوية في جنبات القلعة، بجناح الحاكم، وأسرع حرسه من كل جانب مدججين بالحديد، وبدون أن ينتظروا استفسارًا، صاح الحاكم: "إلي برئيس البريد حالًا!"

ولما جاءه مهرولًا، أعطاه رسالة مختومة لرئيس تجريدته المحاصِرة للبندارية.

وعلى تخوم البندارية المحاصرة، ظهرت على وجوه الجند علامات الإرهاق والجوع. كانت مأساتهم لا تقل عن مأساة الفلاحين؛ فكلا الفريقين يتضور جوعًا، وكلاهما ترك عيالًا يبحثون عن كسرة خبز. كلاهما أبناء لنيل واحد جف وأرض أجدبت.

وعلم الفريقان أنهما بصدد مقتلَة حامية الوطيس.

"فمن فرق بين أولاد آدم، فجعل أحدهم مجلودًا والآخر حاملًا للسوط؟!"

ظهر من بعيد فارس يعدو بفرسه، فعُلم فيه قائد التجريدة بريد القلعة، فأمر الجند بالانتظار وقد هم أن يعطيهم إشارة البدء.

فض خاتم الرسالة، فوجدها أمرًا بالكف والرجوع بالتجريدة إلى القاهرة.

وجاء الشيخ جاب الله إلى نقطة المواجهة، مصطحبًا عليًّا وعطية، أكبر أبنائه، ووراءهم الخدم حاملين الطعام والشراب. فرشت الأسمطة، ووضع الطعام للجميع، فنزل الجنود، وجلس الفلاحون صفوفًا صفوفًا، يُطعمون ويتضاحكون ويهللون بالحمد. ولما حانت الصلاة، أم الشيخ الجميع.

وبعد قليل، جاء حاكم القلعة وموكبه. فقام جاب الله وولداه باستقباله، فنزل الحاكم وعانق جاب الله، وأراد أن يقبل يد الشيخ وسط دهشة الناس أجمعين.

جاء الحاكم يطلب العهد من الشيخ ليصير من مريديه، فقال له الشيخ جاب الله: "قد أخبرني سيدي أحمد البدوي بمجيئك، وأوصاني بك."

فقاطعه الحاكم متعجبًا: "جاءني شيخك بالسيف والسوط، يأمرني بالكف عنك!"

وكان كلما أغمض الحاكم جفنًا ليلتها، لاح له فارس عملاق حامل سيفًا ذا شعبتين، يلبس عمامة حمراء ضخمة، متدثرًا بسبحة ألفية غريبة الصنعة، يدعوه للمبارزة فيبارزه، حتى ليكاد أن يجهز عليه، فيصرخ الحاكم متوسلًا بالرحمة والدين، فيرفع الفارس سيفه عن عنقه، فيسأله عن اسمه فيخبره: "أنا السيد البدوي."

ويأمره بإرجاع جنده. وهكذا تكررت الرؤيا طيلة الليل، ففر الحاكم من فراشه مرسلًا بريده.

٨

سيدي سالم

لم يكن سالم الأعرابي أكثرَ من راعٍ بسيطٍ يهيم بأغنامه في فلوات الصحراء الشرقية، يتتبع مواطن الكلأ ومظانّ الري، ينظر نهارًا إلى سماء شحيحة الغيم، تعد بالمطر ثم تُخلف، وتحجب أحيانًا وهـج الشمس الحارقة عن أرض لا تعرف الظل.

كان وحيدًا إلا من ناقته، تؤنسه في التيه، وتمنحه من لبنها ما يسد رمقه، وترافقه حيث لا بشر ولا أُنس. أدمن الحديث معها، يبثها خوفه ووحشته، كأنها رفيقة عمره.

لم يكن سالم كغيره من رعاة الصحراء وساحل البحر الأحمر؛ قليل الكلام، كثير التأمل، يرفع عينيه إلى السماء كمن ينتظر إشارة من هناك. لو عاش في زمن المعلقات، لكان شاعرها الأوحد وفارسها الحالم.

على طرف مدقٍّ صحراوي يسلكه الحجاج المتجهون إلى ميناء عيذاب، وزوار مقام سيدي أبي الحسن الشاذلي، نصب سالم خيمته المتواضعة من صوف، تحيط به غنماته. كانت مـأوى للمسـافرين وراحـة للعابرين. يستقبلهم مبتسمًا، ويقدم اللبن والخبز وما تيسر من اللحم، ويتركهم يستظلون بكرم لم يعرف له سببًا، إلا أنه كان يشعر أن عليه حراسة هـذا الطريق، وكأن شيئًا غامضًا اختاره لذلك.

وفي ليلة من ليالي القيظ، رأى في منامه رجلًا مهيبًا يقول له:

"قم يا سالم، أَغِثْ من تاه في الصحراء."

استيقظ فزعًا، ثم عاد إلى النوم، فعاد الصوت أوضح وأقوى. امتطى ناقته مترددًا حتى بلغ المكان الذي سمعه في الحلم، فوجد ثلاثةً من الحجاج على شفير الهلاك، كادت الصحراء تبتلعهم عطشًا وخوفًا. عاد بهم إلى خيمته، وسقاهم اللبن حتى أفاقوا.

منذ تلك الليلة آمن سالم أن الزائر لم يكن إلا سيدي أبا الحسن الشاذلي، وأن خدمته طريق إلى الله. ومن يومها صار يهيم في المتاهات ليلًا، ينقذ التائهين كمن يؤدي صلاة لا تنقطع.

مات سالم على حاله، وشُيِّدت قبة على قبره، كُتب على شاهدها:

"هنا يرقد سيدي سالم، بوابة سيدي أبي الحسن الشاذلي."

فصار مقامه مزارًا وملاذًا لمن يضيع بين المقامين.

بعد سنين طويلة، حلّت قافلة من خمسة رجال عند مقامه، أرخَوا رحالهم ليلًا ليستريحوا قبـل متابعـة الطريق إلى حميثرا، مقام أبي الحسن. لكن الريح في تلك الليلة هاجت، وغول التيه نفخ في الرمال، فغابت كل معالم المدق.

ضلّ الخمسة طريقهم، وداروا ثلاثة أيام ولياليها حتى نفد زادهم. وفي فجر اليوم الرابع، وجدتهم طائرة الإنقاذ كأنهم نيام.

حين بلغ الخبر الزكية، خادمة مقام الشاذلي بحميثرا، أصرت، رغم شيخوختها،على الذهاب إلى الصحراء

بنفسها، فصلّت عليهم، وطلبت من ذويهم أن يُدفنوا في موضعهم. قالت:

"من قضى في الطريق إلى الأولياء، نال صحبتهم في الخلود."

فبُني فوقهم مقام سمّته "مقام الشهداء الخمسة".

بعد الحادث بأيام، زار محافظ البحر الأحمر المكان، يتفقد المدق ويستمع إلى شكاوى الزكية. استقبلته في خدمتها المتواضعة، وقدمت له لبنًا باردًا، ثـم قالت:

"يا سعادة اللواء، كل من هلك في التيه، هلك بين سيدي سالم وسيدي أبي الحسن. لو سُفِّل الطريق، لسلم الزائرون."

تنهد المحافظ وقال بأسف:

"الميزانية لا تسمح... تعبيد الطريق يحتاج خمسة ملايين جنيه."

ابتسمت الزكية بهدوء، ورفعت يديها إلى السماء كمن يناجي، ثم التفتت إلى ولدها وقالت:

"هات يا ولدي البُكّ بتاعي من عندك."

جاءها بالحافظة القديمة، فأخرجت منها ورقة نقدية فئة خمسة قروش، وناولتها المحافظ قائلة:

"أدِّي الاعتماد يا سيدي... هم بقى!"

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة، ظانًّا أنها تمزح، ووضع الورقة في جيبه، وغادر وهو يتمتم:

"أهل الكرامات... لا يملّون الحكايات."

في صباح اليوم التالي، دخل مكتبه رئيس مجلس إدارة إحدى شركات التنقيب عن النفط والغاز، يطلب امتياز استكشاف في صحراء مصر الشرقية. قال المحافظ مازحًا، وقد تذكّر الزكية:

"بس بشرط... تتبرع بخمسة ملايين جنيه لتسفيل طريق الأولياء."

ضحك الرجل وقال:

"اتفقنا."

وكتب الشيك فورًا.

حين عاد المحافظ إلى بيته مساءً، أخرج المنديل الذي وضع فيه الورقة القديمة. كانت ورقة الخمسة قروش لا تزال كما هي، لكنها أصبحت تفوح منها رائحة طيب، كأنها خرجت من يد وليٍّ صالح.

ابتسم وقال في نفسه:

"الاعتماد اتصرف يا ستي الزكية... فعلًا اتصرف."

٩
خطوات

كان الطفل الأشقر مصاحبًا لأبيه جهوريّ الصوت، باسم الوجه، ينحدران بربوة جامع سيدي شبل، يطالع عناوين فرشة جرائد وكتب أبي طارق الملاح، يشتري جريدة الأهرام، رغم كون جريدة الأخبار ديدنه، إلا أن حلقات عبد الوهاب مطاوع قد أخلفت عادته، وربما اشترى الوالد كتابًا أو اثنين، يمازح زملاءه المعلمين بثانوية الشهداء بنات، ويمازحونه، وربما ينسلّ الحديث معلقًا على هذا الطفل الطويل الخجول الذي لا ينبس ببنت شفة:

«هو ابنك ده أخرس يا أحمد؟!!»

يلوذ الطفل الأشقر الطويل بجلده خجلًا، ويزداد صمته إحكامًا، يقهقه الوالد:

«بكره محدش يباريه في الرغي زيك إنت وهو...»

ينصرف الطفل الأشقر الطويل الصامت وأبوه نحو مصنع الحلوى، فالعم زغلول الحلواني صديق أبيه الحميم، الوفدي الصميم، يشاكله:

«محدش خربها غير حبيبك عبد الناصر...!!»

فينفجر في وجهه صارخًا:

«يعني مصطفى النحاس، وفؤاد سراج الدين بتوعك هم اللي عمّروها؟!»

فتكون تلك الملاسنات الضاحكة بمثابة كلمات مفتاحية لحديث سياسي قصير بين وفدي وناصري عتيدين، ثم يشتري الحلوى الطحينية، وكفوف

السودانية والحمصية، ويهرولان نحو البيت، ينظر الوالد إلى الساعة من حين لآخر، فهو يحب أن يستمع لبرنامج «نور على نور» من أوله، يصلان إلى بوابة المنزل الخضراء، تدب قدماه المسرعتان نحو الدور الثاني، تبشرهما رائحة الملوخية الخضراء بغداء شهي قوامه المحشي واللحم، وتصدح نغمات برنامج «الشيخ الشعراوي» مع وجه الشيخ الأسمر المنير، تُرص أطباق الغداء على سطح الطبلية البنية الخشبية العتيقة، وتنطلق أبخرتها الشهية.

ومع غروب الشمس، تبدأ متاعب الطفل النفسية المكتومة، فغدًا السبت وبداية رحلته الأسبوعية المدرسية، جدول الضرب وتسميعه، والقسمة المطولة المعجزة، وحصة الإملاء ودرجته الأقل دائمًا من النصف، يأتي الليل مسرعًا ليبشر بنهار كله متاعب، لينتظر الطفل الأشقر الطويل الصامت الخائب، بفروغ صبر لا ينتهي، الخميس تصاحبه الجمعة، سريعة الرحيل دائمًا. يبتسم الشيخ «الشعراوي» في منامه، فتهدأ خواطره، فللمعاناة يومًا نهاية.

ينحدر الكهل الأربعيني على ربوة جامع سيدي شبل، كوالده ورحلته الأسبوعية مكررة الخطو، يداه فارغتان دائمًا من الحلوى والجريدة ومن جدل الأصحاب وضحكاتهم، بينما زادت رحلته تفصيلة عن رحلة أبيه، فهو يسير نحو قبر أبيه وحيدًا، يقرأ الفاتحة، وذهب شعره يلوّح كفضة لامعة، بخطى متثاقلة يسير نحو منزله، لا تستقبله روائح الغداء

الشهي، فقد انتهت حلقات الشيخ، ورحلت الطبلية الخشبية، ومخرطة الملوخية يعلوها الصدأ والعطب...

ما زال يخطئ في جدول الضرب... ما زال تحت النصف بدرجة، ما زال صامتًا لا كما بشّر والـده، يستقبل السبت بذات قبض الصدر، وفي منامه يبتسم له الشيخ:

«أوشكت أن تصل...!»

كان الطفل الكهل الأشقر الأَشيب الخائب الصامت الطويل محنيَّ القامة...

١٠
مائدة الزعيم

١

لم يكن الليل قد بلغ منتصفه حين نادت الجليلة زوجها:

– لا بد من سكن مستقل يا عمدة، يعني هنقعد في مقر الخدمة طول حياتنا...؟!

– أمر ضروري بالفعل، لا بد من سكن مستقل، ولكن ما الحيلة؟ والمساكن الحكومية يلزمها واسطة، ولكني لا أسأل أحدًا غير الله...

– ضيوفك ومريدوك من المهمين كثير...

نظر العمدة إلى الجليلة زوجه بغضب...

– عاوزاني أطلب أجر الخدمة؟ يبقى لسه ما عرفتنيشي...!

تحجم الزوجة المحرجة عن الجدال، وتومئ تسليمًا...

2

– يا عمدة، لسه نايم يا ولدي...؟!

– أمي الزكية!!

– قوم يا عمدة حضّر الخدمة للضيوف...

يستيقظ العمدة مستبشرًا، فرحًا، يعدّ العدس للضيوف، والساعة لم تتجاوز الواحدة بعد منتصف الليل. لم تتعجب الجليلة، فلم يعد العجب من مفردات حياتها بعد كل هذه الصحبة.

قامت لتعد العجين، ثم تشرع في الخبيز، وقد أخذ العمدة في الغناء بصوت شجي:

"ويا روحي ساعة ما القاك،

مش بس أوقاتي بتحلو،

دي العيشة والناس والجو..."

3

– بسرعة... قوم يا جدع إنت قبل ما حد يصحى...

ينهض مسرعًا، وينسل خفية من باب القصر الخلفي، وقد ارتدى جلبابًا بلديًا، وتلثّم بعباءة. تنطلق بهما سيارة سوداء...

– بسرعة، قبل ما حد ياخد باله... (ضاحكًا) هتبقى حكاية... الواد كبير الياوران هياخد فيها جِزه... عاملي ناصح قوي...!!

يبتسم السائق، ويهز رأسه بمحبة وفرح لكونهما معًا وحدهما. منذ زمن وهو يرافقه، ما رأى منه غير الود ولين الجانب...

– على فين إن شاء الله...؟

– بسرعة على الشهداء، نلحق نصلي الصبح في سيدنا الأمير، شبل الأسود...

– مدد!

– ألف مدد!

يدخل الرئيس بعصاه وهيئته ووجهه البشوش الأسمر، محييًا الأمير. يفطن المصلون لوجوده...

– الريس...!

يضع الرئيس سبابته على فمه:

– مافيش رئيس هنا، كلنا في رحاب الأمير خُدّام...

يصلي الصبح. كلما ضاق صدره جاء هنا، في رحاب الأمير، بلا حراسة ولا جلبة. صحيح أن الحرس دائمًا يكتشفون الأمر ولا يتركونه إلا وهرعوا إلى مكانه، ولكنهم اعتادوا على ذلك، خاصة حين يكون بقصره الرئاسي بميت أبو الكوم، التي لا تفصلها عن الشهداء سوى بضعة كيلومترات.

ترن أصوات السيارات والموتوسيكلات من الخارج، ويدخل رئيس الحرس المسجد...

– يا ريس، ده معقول...؟!

– أنا وسط أهلي... (يقهقه ضاحكًا) إزاي يا فالح انت وهو تسيبوا الريس يهرب منكم؟!

يضحك الجميع مستبشرين فرحين، شاعرين بترحيب الأمير.

يخرج السادات ومن معه إلى ميدان سيدي شبل، فتقع عين الرئيس على لافتة: "خدمة العمدة".

يشير لمرافقيه:

– هلمّوا للخدمة...

يدخل الرئيس على العمدة، غير مصدّق لما يراه، فيضاحكه ويباسطه:

– مافيش أكل عندك ولا إيه...؟!

– لا، أنا كنت منتظر من الساعة واحدة. هي قالتلي إنكم جايين، بس ما كنتش أعرف إن الريس هو اللي جاي...!

يستفسر الرئيس بعينيه مندهشًا:

– محدش يعرف إني جاي هنا...؟

– لا يا ريس، إحنا عندنا مخابراتنا الخاصة برضه...!

يضحك السادات:

– طيب، احكي يا...

– العمدة يا ريس...

تمد الطبالِي، وتوضع أطباق العدس الساخن، وأرغفة الخبز الصبوح، والجرجير، والليمون المخلل. يأكل الرئيس ووفده بشهية، ويتابع كلمات العمدة، ويهتف بسعادة مع كل لقمة وكلمة: "الله!"

– كنا واحنا صغيرين يا عمدة بنيجي رحاب الأمير جعانين، فيكرمنا بالعيش والعسل الأسود. دلوقتي بقى عدس وعيش...

كان خبر قدوم الرئيس قد انتشر في الشهداء، فحضر مسؤولو المركز كله لاستقبال الرئيس في مقر خدمة الزكية والعمدة.

يبادر الرئيس ضاحكًا:

– وفين بيتك يا عمدة؟

– ما عنديش بيت، والله...!

– يعني عمدة ومن غير بيت؟! باين عليك عمدة فالصو... (يقهقه ضاحكًا...)

يسأل رئيس مركز الشهداء:

– أخبار الإسكان الشعبي عندكم إيه؟

– فيه خمس عمارات يا ريس هيتسلموا الشهر الجاي للمواطنين...

– أول شقة تكون للعمدة...

ينصرف الرئيس مودعًا، سعيدًا، مستبشرًا...

4

ببذلته العسكرية الألمانية الطراز، وسط جنوده، يتابع سرب طائرات مقاتلة بنظارته المكبرة، لكنه يرى شيئًا آخر غير الطائرات.

يرى خيولًا مجنحة تملأ الأفق السماوي، أصوات رعد يتخللها تكبير.

يقف مندهشًا.

تقف سيارة نقل جنود أمامه، يقفز منها ثلاثة. يقترب أحدهم منه، يصوّب بندقيته الآلية نحوه.

يلوذ مرافِقو الرئيس بأسفل المقاعد.

يشير إلى الجندي آمرًا إياه بالتوقف.

يعاجله برصاصة تخترق رقبته.

تهبط الخيول المجنحة أرض العرض العسكري، وتنطلق سهامهم نحو القتلة. يتوقف كل منهم مشدوهًا وكأنه تجمّد مخدّرًا بمكانه.

كانت خططهم أسر كل من في العرض من قيادات عسكرية وسياسية ثم إعلان قيام دولتهم، وكأنهم نسوا أين هم.

يودّع الزعيم الأرض ومن عليها بنظرة وداعة راضية.

يخاطب قائدهم:

– من أنت؟

– أنا من كان يطعمك الخبز والعسل!

– ما كان هذا عشمي يا أمير الجيوش. كنت أنتظر باقات الورود في هذا اليوم، فلم تكن غير هذه الرصاصة القاتلة...

– لا عليك، ومن قال إن التاريخ يسير بخط مستقيم؟ في دائرة يطوف التاريخ... لا عليك. هلم معنا...

يبتسم مستبشرًا، يمتطي أحد الخيول المجنحة، ويرتفع بصحبتهم إلى السماوات القريبة المنتظرة...

١١
كانت تبتلع صوتها

في مدينة صغيرة أرهقها الصمت، كان الناس يبتلعون الغضب كما يبتلعون الهواء.

كل شيء كان مكتومًا: الأصوات، الأحلام، وحتى الأسماء. اللافتات تحيي صاحب الجلالة الكبير جدًا، ومكبرات الصوت تذيع خطبه الأسبوعية، ونوافذ البيوت مغلقة بإحكام كأنها تخفي شيئًا أو تخاف من وباء قاتل أو غارة وشيكة.

في الساحة الكبرى كانت تماثيل الزعيم تبتسم ابتسامة واحدة لا تشيخ، يلّوح بيد، ويرفع باليد الأخرى كلاشنكوف.

الكلاب والقطط الضالة تسير بنظام غريب، كأنها تحفظ التعليمات مثلما يحفظها العسس.

لكن...وفي يوم عادي جدًا توقف عامل النظافة في منتصف الشارع، كان يكنس الغبار نفسه منذ أربعة وسبعين عامًا، يعرف الوجوه أكثر مما يعرفها المخبرون.

رفع رأسه وقال بصوت عالٍ:

-اتكلموا.

كانت الكلمة بسيطة، لكنها شقت الهواء كالرعد.

ارتبك عصفور على سلك الكهرباء، وتوقف صوت مذيع نشرة التعليمات اليومية الجديدة لحظة، كأنه سمع ما لا ينبغي سماعه، أو ما لا يصدق سماعه، ثم

شرع في إكمال نشرته بمذياع القهوة التي لا يجلس عليها أحد.

فتحت امرأة شباك غرفتها كأنها تشم الهواء،

ثم تبعها رجل عجوز كان يتكئ عرج سور شرفته، ثم صبي يحمل حقيبته المدرسية يلتفت بتردد.

في المساء من ذات اليوم ظهرت على جدار مجهول ورقة كُتب عليها بخط مرتعش:

«الكلام مش جريمة».

في اليوم التالي اختفت الورقة، بالطبع، لكن الجدار ظل مغسولًا بعيون ترقب من يمر بكل دقة. لم يتغير شيء، ولكن شيئًا صغيرًا تغير في العيون: صار فيها ما يشبه الضوء.

١٢
عطية

وكان عزيز بن السيد عطية البنداري متوليًا لكافة شؤون العزب، والأراضي الواسعة، والالتزامات الشاسعة، وتصريف أمور الزراعات والأموال، والوارد والمنصرف، وكان حلقة الوصل بين أبيه الولي المحتجب، والحكام من مماليك الإقليم والعاصمة.

وكان علي بن السيد عطية البنداري سر أبيه وخادمه؛ يستيقظ مبكرًا، يشعل النار، ويعد طعام الإفطار لأبيه، ويدفئ مياه وضوئه، ويديم البر بمريدي الشيخ، ومتولي ديوان فقراء وأيتام ومساكين الإقليم، ومن انقطع للعبادة في خلوات طينية تحيط بخلوة أبيه.

كان أحدهما عقل أبيه، والثاني قلبه. ولم تكن الدنيا عند السيد عطية غير وسيلة وممرًا إلى آخرته، ولم يكن من شيء يشغله عن مآله ولقاء ربه والورود على حوض نبيه. كان الفرح بالقرب جمالًا يغشى روحه وقلبه، فتفيض يده بالإحسان كأنه ريح مرسلة، متشبهًا بنبيه صلى الله عليه وسلم. ولم يكن من شيء يؤرق لياليه سوى بعده عن روضة سيده البدوي، وقد حان وقت مولده، وقد تقدمت به السنون، ولم يعد بعد من جهد ولا وافر قدرة على الرحيل.

وكان الوقت وقت خليفة البدوي سيدي عبد العال، وكان الأخير نفحة علوية ورحمة ربانية لتلامذة البدوي ومريديه، ولولا عبد العال لهلكوا شوقًا لحبيبهم وأستاذهم البدوي، ولتغشاهم الحزن حنينًا لسيدهم

ووليهم الأحمدي. فكان عبد العال منجيهم من استبداد الشوق فالهلكة، وسلوتهم من الحنين والغرق في بحار الحسرة؛ يذكرهم بسيدهم ويسير فيهم بسيرته، فكان عوضهم عن سيدهم وسندهم.

فكان علي رسول أبيه إلى روضة سيده، وقائد قافلة محملة بكل ألوان الخير والنعمة، وجهتها طندتا طنطا، ورسالة شوق ومحبة من أخ لأخيه.

وكان وقت تجديد الالتزامات وتسديد الضرائب والحساب قد أزف، وكانت الدنيا قد دانت لعلي بك الكبير شيخ بلد مصر، والمتحكم في سياستها ودفة حكمها. وكان عبد العال قد بشره من قبل بتلك المنزلة، في وقت اشتد فيه المماليك يطلبون رأسه على عادتهم وقت خلافهم واستضعاف فريق لفريق منهم، فآواه عبد العال وأحسن إليه في شدته، وبشره أن مشيخة البلد ستكون من نصيبه.

فتعجب علي بك الكبير، وقال لنفسه: «كيف، والطلاب قد اشتدوا على رقبتي، ولا أمن لي ولا مستقر أكن فيه؟» فكان حاله بين النكران والإيمان، وقال: «وما عليه، فلعلها بشرى، والشيخ واضح الصلاح، ويقال عن شيخه العجب! فلعله ينال بقربه الفلاح».

ولما تحققت البشرى جاء علي بك الكبير لعبد العال عارضًا عليه الدنيا من مال ومنصب وقرب وجاه.

فضحك عبد العال وقال: «لم تكن يومًا لنا بغية».

فقال: «إذن كيف أكافئ سابق معروفك وعطاء يدك؟»

فقال: «هذا مقام سيدي ومسجده، فانظر كيف ينبغي أن يكون حاله».

فوسع علي بك الكبير جامع البدوي وزخرفه، حتى كان أعجوبة زمانه، وأهدى ضريحه مقصورة نحاسية بديعة الصنع بهيجة المنظر، وأعد لعبد العال برزخًا منيفًا ومقصورة خشبية منيرة مقابلة لروضة البدوي إذا حم القضاء وحان الأجل.

وجاء حاكم الإقليم وجنوده للحساب، فاستقبلهم عزيز بالهدايا على عادة أعيان وملتزمي زمانه، ودقق في الحساب وإحصاء الضرائب وعد الذهب والمُنجلب، فكان أوفى التزامًا وأدق ضبطًا.

إلا أن الحاكم قد سأله عن والده السيد عطية، وعبر عن رغبته في لقائه. فتحرج عزيز من الاعتذار إليه باحتجاب أبيه في خلوته وانشغاله بتسبيحه وصلاته، ولعلم عزيز باعتزاز هذا المملوك بنفسه وقسوته إن رد له طلب، وكيف سيقولون إن اعتذر الشيخ عن مقابلته.

فقال لنفسه: «وما عليه إن خرج من خلوته للترحيب ومقابلة الحاكم وحفظ ماء وجهه وصون رجائه وطلبه؟»

وكان من عادة الشيخ ألا يدخل عليه أحد خلوته غير علي، وعلي قد ذهب إلى طندتا، فما العمل؟

فكتب عزيز رسالة لأبيه يخبره برغبة حاكم الإقليم في التبرك بمقابلته، ومن خلل باب الخلوة أسقطها، فرد عليه الشيخ بورقة لم يكتب فيها غير عبارة: «أخرج من معية الحق لمجاملة الخلق؟».

ولما تعذر اللقاء حسب الحاكم أن ذلك تحقيرًا لمقامه واستصغارًا لشأنه وإهانة لمركزه، فغضب وتوعد وهدد وأرغى وأزبد، وأمر أن يأتيه عزيز من غد بالدفاتر وأوراق الالتزام وحدود الجفالك والأبعاديات، وكان معنى ذلك في عرفهم سحب الالتزام منهم.

وقع عزيز في حيرة شديدة: ماذا يفعل؟ والشيخ قد أغلق دونه خلوته. هل يسلم الالتزام، أم يلحق بالحاكم راجيًا؟

ولكن الشيخ قد أرسل إليه للقائه، ولما قص عليه عزيز القصص أمره أبوه بترك كل شيء واللحاق بأخيه إلى رحاب البدوي.

والحقيقة أن عزيزًا لم يكن بأقل من أخيه ورعًا ومحبة؛ فهما صنوان من أصل واحد، إلا أن ما ألقي على كاهله منذ نعومة أظفاره لم يكن بالشيء الهين، فغلبت فيه النزعة العملية والحنكة في تدبير الأمور ومسايرة ما يجد من أحداث. وعلم السيد عطية ذلك، فكأنما أراد أن يروح عنه ويريه من آيات ربه.

وصل علي إلى رحاب البدوي في أول أيام المولد، بعد رحلة غيّب تفاصيل مشقتها شوق لا ينقطع وحنين لا يزول. نزل أولًا يتفقد سيده عبد العال ويبثه محبته ويسلمه رسالة أبيه، ثم وصل الشوق بالشوق فتوجه إلى ضريح البدوي يسر إليه لواعج حنينه.

وصل عزيز في الليلة الختامية من مولد البدوي ليجلس بجانب أخيه في حضرة سيدي عبد العال، ويدخل بعدها على إثره موكب كبير على رأسه علي

بك الكبير ذاته، وحكام الأقاليم، وعلى رأسهم حاكم الشرقية.

وبعد انتهاء الحضرة يدنو علي بك الكبير من السيد عبد العال يسأله أن يأمره بما يرضيه، فيجيبه عبد العال مشيرًا نحو عزيز وأخيه: «سل حاكم الشرقية عن سبب غضبه».

فيشير إليه علي بك، وما إن تقع عيناه على عزيز حتى يعلم سبب استدعائه، فيقول: «والله ما طلبته إلا أن أضاعف التزامه».

فيبتسم عزيز راضيًا مرضيًا، ويوجه عبد العال حديثه للجميع:

«اعلموا أنه لا يزار ولي إلا بإذنه، وما أدراكم من هو عطية البنداري».

١٣

سحور

سهرا طوال الليل على عادتهما في ليلة رؤية الشهر المبارك رمضان. فبعد إعلان الشهر ترتدي المآذن والقباب حلتها من الأنوار الملونة الزاهية، وترتد الجمالية، وفي القلب منها حي الحسين، إلى صباها وشبابها الريان. لترتفع الزينات في كل حارة، وتعلو الضحكات والتهاني، ويتقافز الصبيان والبنات بفوانيسهم ذات النوافذ والشموع، تعلو حناجرهم بأصواتهم الغضة، ينشدون أهازيجهم المرحة.

وتخرج عربات الفول من مخادعها، ترسم أبخرته ذكرياتها بدفء رفقة المستوقدات القاهرية الساهرة، وتتسابق الدراجات ثلاثية العجلات بصناديقها الحاملة اللبن الزبادي، وحلوى رمضان الشهية من مهلبية، وأرز بلبن محلى بعسل النحل. وتتهادى السيدات والفتيات حاملات أقفاصهن صوب الأفران، ملبيات نداء الخبز الشهي الساخن، فالليلة أول سحور.

جلسا يشربان القرفة المخلوطة بالزنجبيل والحليب، يتنسمان أنفاس الليلة المباركة. يرتشف الشيخ رشفة من مشروبه الساخن، ويرجع الكوب مسرعًا إلى صفحته، متمتمًا بتسبيحات، ويلهج من الحين والحين بالصلاة على النبي. وولده محمود الصعيدي لا تفارق ابتسامة الوداعة المرحبة وجهه النحيل الوسيم الطيب.

لا يمر عابر أو قاصد للقهوة إلا وألقى السلام والتهاني على الشيخ أحمد الصعيدي، ليتزاحم المجاذيب

والمنقطعون على الشيخ، يجود عليهم بابتساماته ونفحاته المباركة. وكما كان تزاحمهم بدون مقدمات، كان انصرافهم بدون مبشرات؛ هذا هو شأنهم معه: يقدمون وينصرفون بغتة من غير نذير أو تمهيد.

لينتبه الشيخ إلى كوبه الذي فقد سخونته، ولم يفرغ منه إلا أقل القليل، فينظر الابن إلى وجه أبيه ويضحك.

– ليست المرة الأولى، ولن تفرغ أبدًا من كوبك قبل...

يقاطعه الشيخ ضاحكًا مداعبًا:

– وفي كل مرة يفرغ كوبك قبل كوبي...

ثم يكتسي وجه الشيخ جديته:

– راضٍ يا محمود؟

– راضٍ يا أبي... ليس في قلبي غير الرضا. جنة الله في الأرض الرضا؛ آوى إليها آدم وزوجه حين هبطا، وكادت تفيض نفساهما ندمًا وأسفًا على ما فرطا، فأخرجهما من جنة وأدخلهما جنة.

– أخشى يا ولدي أن أكون قد قصرت في حقك...

– وهل يحمل القدر إلا كل الخير؟ فليس لفعلك فعل، غير أنه، مجازًا، ينسب لك... حتى الكسر المتتابع، والمرض، في باطنهما الجبر والعافية. هي منح الله يا أبي... أسر لك بسر؟

يتهلل وجه الشيخ سعادة وراحة:

– نعم يا حبيبي... أي سر؟

– في لجج المرض لم أشعر يومًا بألم... وحينما كنت طفلًا صغيرًا كانوا دائمًا يأتون لمداعبتي ومؤانستي.

– من؟

– هم! ألا تعرفهم؟ أهل القربى. كانوا يقولون: «انشغل أبوك بمودتنا، فانشغلنا بك يا صغير الحبيب».

كفكف دمعة أفلتت سريعًا وانحدرت على وجنته.

– بالله يا محمود؟

– هم أهل الكرم يا أبي.

– نعم، صدقت...

– والرضا يا أبي لا يكون بغير المحبة، والمحبة للعدو والمنكر قبل الصديق والمصدق. المحبة يا أبي هي السر الساري، ومدد الله الجاري، والقلوب أوعية السر، والسر المحبة. وكلما تذكرت أهل البلاء أحاطوا بي، كل يشكو ويتوجع، ولا ينوء كاهلي بما أحمل عنهم، ليزداد أنسي أنسًا.

– وحينما اكتشفت ما حل بك يا ولدي كانت مصيبتي بانتقال شيخي، فتكالبت الأحزان. وكلنا يحزن، فالحزن زكاة القلوب. نمت مثقلًا، لا أدري كيف أغمض عيني، ولا أدري كيف وجدت تلك الورقة في يدي. هل كانت رؤيا أم يقظة؟ الله وحده يعلم. فتحتها فإذا قول الله مسطور: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير...».

وإذا بأمك تسلمني ما ادخرته مما فاض من الرزق وتقول لي: «آن أوان الحج، فحج».

ليقطع حديثهما أحد الأحباب حـاملًا أطبـاق الفـول والسلطة والمخلل وسلطانيتين من الزبادي.

– أخذكما الحديث يا مشايخ... السحور وجب.

لتملأ بسمة الوداعة وجه محمود، ويناوله الشيخ رغيفًا قد امتلأ دفئًا كبسمته.

كان سيدي محمود الصعيدي قد بلغ الشباب متوكئًا على الابتلاء رفيقًا. كان قد قضى معظم عمره أسير جبائر الجبس؛ وكلما جُبر كسِر. كانت عظامه من نوع نادر يطلق عليه العظم الزجاجي: هش رقيق.

فكان كلما لعب مع أقرانه الأطفال إبان طفولته، دفعه أحدهم على عادتهم في اللعب، فوقع فكسر، فيحمله سيدي أحمد الصعيدي إلى أقرب مشـفى ليجبر. وبالرغم من تمزق قلب الشيخ شفقة، إلا أنه كان يعده بابًا من أبواب رحمة ربه، ومعراجًا يعرج به المقامات السامية، ونافذة يشاهد خلالها رحمات ربه.

كان دومًا يرافقه إلى أعتاب آل البيت الطيبة، فعرف وسط الطرق ومشايخها وسالكيها ومجاذيبها. عرف درويشًا تنضح السعادة من محياه، وكان رقيقًا رقة عظامـه، تداعبـه النسـائم مـداعبتها الياسـمين في أكمامها، فيفوح الطيب من جنباته. نحيل الجسـد، مستقيم الأنف، عريض الجبين، سهل الوجنتين. لا تراه إلا ضاحكًا أو مبتسمًا.

كان قرة عين أبيه، وبشرى ربه لأبيه، نفحة الأيام الماضية والمقبلة.

وفي نهاية الحضرات، مذ استطاع السير، كان الشيخ يكلفه بتوزيع قطع الحلوى على المريدين.

يستيقظ بهدأة السحر، مستغرقًا بأوراده وصـلواته وركعاته ودعائه للقاصي والداني.

وحين لا يفصله عن الفجر غير ساعة يوقظ الأسرة جميعها للذكر والصلاة، ويدخل على أبيه في خلوته يشاركه الذكر حتى أذان الفجر.

وحين بلغ مبلغ الرجال أصر على العمل والكدح، وحين حاول أبوه الشيخ منعه قال:

– نصيبي من ميراث أبي آدم.

ليقع بالشغف به كل رفاقه العمال وأرباب العمل. كان اليوم الذي ينقطع فيه، لسبب أو لآخر، يوم حزن وكدر، ولا يكاد اليوم ينتهي حتى يتجمع الرفاق جميعًا لزيارته. فلم ينقطع وروده المشفى لسبب أو لآخر، فكان مع رقة عظامه كثير الاعتلال والمرض.

خرج من عمله وقد أنهكه الصوم بشدة في يوم من أيـام رمضـان الطويلـة القائظـة، ليـؤذن المغـرب بمنتصف الطريق أخيرًا. وبين مئات آلاف الخطوات المتعجلة المسرعة نحو غايتها، تحول خطوه نحو محل للمرطبات ليشرب كوبًا مثلجًا من عصير القصب، يروي به غلته ويستعيد بعذوبته ريه المفتقد من أثر الصوم الطويل والجهد المبذول طيلة النهار.

وما إن يصل البيت المتحلق حول مائدة الإفطـار منتظرًا قدومه حتى تدهمه موجة حمى شديدة، يفقد على إثرها قواه وطاقته. ولعلم الشيخ بحالته الواهنة يلقي مسرعًا ما بيده من طعام؛ لم يرد الشيخ ضياع ثانية، لتيقنه من مغبة الانتظار وإهدار الوقت.

أراد السير معه إلى المشفى، ولكن محمود كان قد فقد كل طاقته وقدرته على السير. خرج يبحث عما ينقله، ولكن الوقت وقت إفطار، ليخيم السكون على كل ما يحيط به.

بحث بناظريه عن سيارة لنقلهما فلم يجـد. فنـذر الشيخ إن منَّ الله عليه بما ينقله أن يشتري سيارة يقودها متجولًا بأوقات السكون لإغاثـة ملهـوف أو مكروب مثله انقطع به الطريق واستبدت به الحاجة.

ليشـق سكون الطريق أزيز محرك سيارة تقترب. سيارة مألوفة خيل إليه أنه رآها من قبل. تقف حياله تقودها السيدة زينب ذاتها.

هي... هي... وقبل أن يتكلم أشارت إليه أن أسرع.

– فلتأت بمحمود... قد حان الوقت.

وقبل أن يعاون الشيخ والإخوة أخاهم لحمله نحو السيارة، إذا بمحمود يحدثهم بصوت واهن:

– قد أرهقتكم طيلة حياتي، وأثقلت عليكم... سامحوني.

– ليتك تثقل أعوامًا ودهورًا يا محمود، وظهري لك مركبًا، وعيني لك مرفأ.

علم الشيخ وعلموا أنها ليست ككل مرة مرت.

وتتحرك السيارة تقودها السيدة، بجوارهـا الشـيخ، ليستلقي محمود على المقعد الخلفي، يشترك مع الأحياء فقط باختلاج أنفاسه، تناضل من أجل بقاء لحين.

١٤

الدوار

لم يكن القرار لحظة واضحة يمكن الإشارة إليها، بل كان شيئًا يتكوّن ببطء، كظلٍ يتمدّد دون أن يُلاحظ. شعر به عدنان منذ البداية، لكنه لم يملك الشجاعة ليوقفه، أو ربما لم يكن له قرار حيال عيني أمه..

قبل أيام قليلة، تغيّر كل شيء. جلست أمه على حافة السرير، تحمل ورقة طلاق بأختام رسمية باردة لا تشبه دنياها التي كانت حياة وخصبًا، وبجوارها تقارير طبية تخبرها بما تبقى من عمرها الذي أوشك على الرحيل. لم تبكِ، لم تعترض، فقط قالت بصوت خافت: "مش عايزاهم يتبهدلوا بعدي". كانت تنظر إلى السقف، كأنها تخاطب قدرًا لا يُرى، ومنذ تلك اللحظة لم تعد الأم التي يعرفها عدنان.

صارت أكثر هدوءًا، لكن ذلك الهدوء كان مخيفًا كهدوء قبر موحش. كان يشبه انفجارًا مكتومًا. كلماتها قليلة، لكنها حاسمة، وكأنها لا تفكر بل تُصدر أحكامًا. حاول عدنان أن يقنع نفسه أن ما تمر به مجرد صدمة، لكن الفكرة تسللت إليه رغمًا عنه: ماذا لو كانت محقّة؟ ماذا لو كان الموت أرحم؟

في تلك الليلة، كان البيت ساكنًا بشكل غير طبيعي. صمت ثقيل يضغط على الصدر. كانت الأم تراقب، بعينين ثابتتين لا تهتزان. عندما قالت وهي تنظر إلى الصغيرة: "دي أكتر واحدة هتتعب"، شعر بشيء داخله ينكسر، لكنه لم يتوقف. لم يكن ما حدث قرارًا بقدر ما كان انهيارًا تدريجيًا. في كل مرة، كان يفقد

جزءًا من نفسه، وفي كل مرة، كانت نظرة منها تكفي ليكمل.

الأطفال لم يقاوموا كثيرًا. كانوا يثقون. وهذه كانت أقسى الحقائق.

عندما انتهى كل شيء، جلس وسط الشقة التي لم تعد شقة، بل فراغًا ثقيلًا. نظر إلى أمه، فوجدها ما تزال حية، تتنفس بصعوبة، لكنها هادئة بشكل مخيف. قال بصوت مكسور: "خلصنا". نظرت إليه وابتسمت ابتسامة خفيفة، ثم قالت: "لسه".

اقترب منها وهو يشعر بشيء لم يشعر به من قبل... الخوف منها. سألها: "إنتِ عايزة إيه؟" فقالت ببساطة: "زيهم". لم تتراجع، لم تتوسل، فقط أغمضت عينيها كأنها توافق. للحظة، تمنّى أن تمنعه، أن تقول "لا"، أن تعود أمًا ولو لثانية... لكنها لم تفعل.

وعندما انتهى، لم يشعر بشيء. لا راحة ولا ندم، فقط فراغ.

أمسك الشفرة وقطع شراايينه. كان الألم حقيقيًا، والدم حقيقيًا.

استيقظ على رائحة خانقة، ووجد نفسه وسط أجساد صامتة. لم يكن متأكدًا إن كانت جثثًا حقيقية أم مجرد صور من ذاكرته. المكان بدا وكأنه كابوسًا يصارع من أجل الخروج منه. حاول أن يصرخ، لكن صوته لم يخرج. بدأ يزحف، وكلما تحرك، اختفى جسد من حوله، كأنهم لم يكونوا هناك أصلًا... أو كأنهم جزء من كابوسه الجاسم على صدره..

عندما خرج إلى الضوء، وجد نفسه على سطح عمارة شاهقة. الهواء كان قاسيًا ، والواقع أوضح مما يحتمل. وقف على الحافة، نظر إلى الأسفل، ثم إلى يديه، وهمس: "أنا عملت إيه؟"

خطوة واحدة كانت كفيلة بإنهاء كل شيء.

لكن يدًا جذبته إلى الخلف. ثم أخرى. أصوات، أشخاص، حياة ترفض أن تتركه يسقط.

سقط على الأرض، يبكي، يرتجف، لكنه أدرك شيئًا واحدًا: أنه لم ينجُ. المقبرة كانت داخله...

فتح عينيه فجأة.

كان في نفس الشقة.

نفس الصمت، أخواته يغطون في نوم عميق كأن يد السوء لم تمسسهم، الصغيرة تحتضن دميتها تبتسم لأحلام العيد وفستان جديد رأته بأحدى الفتارين، الوسطى تحلم بوجبة قد تأتي عن قريب، بينما الأخرى تحلم بمقدم أبيها بهدايا ولعب كثيرة.

نظر نحو أمه...

كانت ما تزال هناك، تنظر إلى السقف.

ثم قالت بنفس الصوت: "مش عايزاهم يتبهدلوا بعدي".

تجمّد في مكانه.

وفي تلك اللحظة فهم الحقيقة المرعبة:

أن ما حدث قد يكون لم يحدث بعد...

أو أنه يتكرر، ولن ينتهي من الدوران مرات ومرات ...

وأنه لن يستطيع الهروب في كل المرة...

لأن الفراغ لم يكن له نهاية...

بل دائرة يدور فيها إلى الأبد، ثم ضجيج صمت، يعقبه صراخ لا يهدأ، سارينة إسعاف، ثم لافتة كُتب عليها "عنبر الخطرين"، .

١٥
الطلب

كان ورقةً واحدة.

ورقةٌ بيضاءُ من النوع الرخيص، عليها اسمي، واسمُ المدرسة، وتوقيع المدير، ورجاء صغير لا يستحق كل هذا العناء:

«برجاء الموافقة لصالح العمل.»

لكنني، بعد أسبوعين من الذهاب والإياب، بدأت أشك أن الورقة كانت تخفي شيئًا خطيرًا.

ربما كانت وثيقةً سرية.

ربما تحمل بعضَ أسرار الدولة.

ربما عريضةُ مرافعةٍ في قضية تحكيم دولية على جزر الفوكلاند المتنازع عليها بين حكومة جلالته والأرجنتين

ربما، دون أن أدري، كنتُ قد طلبت تعييني رئيسًا للوزراء.

في صباح اليوم الأول، دخلت مبنى الإدارة التعليمية وأنا متفائلٌ، على عكس طبيعتي.

كان سكرتير البيه مدير الإدارة يجلس خلف مكتب صغير، وبجواره كوبُ شاي باردٍ ودفترٌ ضخم.

ناولتُه الطلب.

نظر إليه، ثم إليّ.

— ده بتاع إيه؟

قلت:

— طلب تكليف بتسيير أعمال وكيل مدرسة.

رفع حاجبه.

— وكيل؟

— أيوه.

— مؤقت؟

— أيوه.

— بجانب شغلك الأصلي؟

— أيوه.

أعاد الورقةَ إليّ.

— اتفضل أدخل بيها للبيه المدير.

دخلت مكتب البيه مدير الإدارة.

كان يجلس خلف مكتبه، وأمامه كومةٌ من الملفات تكفي لبناء سورٍ حول مدرسة طويلة عريضة.

أعطيته الطلب.

قرأه.

مرة.

ثم مرة ثانية.

ثم قلبه على ظهره.

قلت:

— في حاجة يا فندم؟

قال:

— فيه كلمة.

توقفت أنفاسي.

— كلمة إيه؟

أمسك القلم الأحمر، ووضع خطًا تحت كلمة «تكليف».

— دي تتشال.

— حاضر.

— وفيه كلمة تنضاف.

— إيه؟

رفع رأسه.

— «بتسيير».

قلت:

— هي مكتوبة يا فندم.

نظر إلى الورقة.

ثم إليّ.

ثم إلى الورقة مرة أخرى.

قال:

— آه.

سكت قليلًا.

ثم قال:

— طب عدّلها.

خرجت.

في اليوم التالي عدّلتُها.

هذه المرة كان سكرتير البيه مشغولًا بحل مشكلة تخص مدرسةٍّ أخرى.

سمعني أقول:

— الطلب.

قال دون أن ينظر:

— سيبه.

قلت:

— اتعدل.

رفع رأسه فجأة.

— اتعدل؟

— أيوه.

أخذ الورقة، ودخل بها إلى المدير.

انتظرت في الخارج.

بعد دقائق خرج.

ناولني الورقة.

— ناقص توقيع.

— توقيعي موجود.

— توقيع المدير.

— توقيع مدير المدرسة موجود.

— لا، مدير شؤون العاملين.

— بس حضرتك قلت لي أجيب الطلب موقّع من مدير المدرسة فقط.

— ياسيدي جل من لايسهو؟

— طبعا، ونعم بالله!

— طيب هاته بكرة، ومانساش توقيع السيد مدير شؤون العاملين...

في اليوم الثالث، حملتُ الطلبَ، والقلم، وصـورة البطاقة، وأصل البطاقة، ونسخة من البطاقة، ونسخة

من الطلب، طبعا بعد ما وقّع عليه السيدُ مدير شؤون العاملين..

لم أكن أتوقع بالضبط ماذا يمكن أن يطلبوا.

ربما يطلبون شهادة ميلادي.

ربما تحليل دم.

ربما شهادة حسن سير وسلوك موقع عليها من اتنين موظفين لايقل راتبهما عن أربعين جنيه!

دخلت.

كان البيه مدير الادارة يتحدث في الهاتف.

أشار إليّ أن أضع الورقة.

وضعتها.

بعد أن أنهى المكالمة، أمسك بالطلب.

قرأ.

ابتسم.

هذه المرة ابتسم.

قلت في نفسي: انتهت.

قال:

— ممتاز.

كدتُ أشكرَه.

ثم أضاف:

— بس احذف «الأصلي».

— منين؟

— من الجملة اللي بتقول بجانب عمله الأصلي.

— بس دي حقيقة يا فندم.

— عارف.

— أمال ليه نحذفها؟

— علشان الصياغة.

سألته:

— والصياغة هتفرق في إيه؟

نظر إليّ طويلًا، وكأنه يتلقى وحيا ما...

ثم قال الجملةَ التي ستظلُ تطاردنُي حتى الآن:

— إحنا مش بنكتب لنقول الحقيقة... إحنا بنكتب علشان الورقة تمشي.

خرجت وأنا أفكر في الجملة.

ربما كان الرجل على حق.

فالورقة التي تقول الحقيقةَ قد تتعطل.

أما الورقة التي لا تقول شيئًا، فقد تمشي بسرعة سير فرن العيش الملدن.

في اليوم الرابع، كنت قد فقدت الرغبة في الضحك.

وفي اليوم الخامس، فقدت الرغبة في الغضب.

وفي اليوم السادس، بدأت أتحدث مع الطلب.

كنت أضعه على المقعد بجواري في المواصلات.

أحيانًا أفتحه وأقرأه.

— مالك؟

لا يجيب.

— إنت عايز إيه؟

يصمت.

— هو أنا مش طالب حاجة لنفسي... دي مصلحة العمل.

يصمت.

— طب ليه معطلني؟

يصمت.

في اليوم السابع، دخلت الإدارة.

وجدت سكرتير البيه يحدق فيّ.

قال:

— الطلب؟

أخرجته.

أخذه بحذر.

قلّبه بين يديه.

ثم قال:

— فيه مشكلة.

قلت:

— إيه؟

قال:

— التاريخ.

نظرت إلى التاريخ.

كان صحيحًا.

— التاريخ إيه؟

— متقدم.

— متقدم إزاي؟

— يعني متقدم.

— عن إيه؟

— عن نفسه.

حدقت فيه.

فابتسم.

— بهزر معاك.

ثم أضاف:

— بس البيه المدير عايز تعديل.

جلست على الكرسي.

لأول مرة شعرت أنني لن أخرج من المبنى حيًّا.

في اليوم العاشر، جاء معي أحد رفاق حزبنا النضالي القديم والذي زهق من النضال وسنينه بعد ليلتين قضاهما في مكتب أبينا القابع في لاظوغلي.

قال، بعد أن تلبسته روح النضال القديم...

— أنا هدخل معاك.

— ليه؟

— يمكن يحتاج شاهد.

-طيب ما يمكن يطلب شاهد تاني كمان...

ـ لا، من الناحية دية متقلقش أنا قولت لمدام سعاد ومدام فوزية، وانت عارف طبعا إن شهادتهم مفرْطة براجل واحد صحيح...

-صحيح...

دخلنا على البيه

ناوله الرفيق بحماسة الطلب.

قرأه.

قال:

— مين محمد؟

أشرت إلى نفسي.

— أنا.

قال:

— ده طلبك؟

— أيوه.

نظر إلى رفيق النضال.

— وإنت؟

— زميله.

قال المدير:

— مالكش دعوة.

ثم عاد إليّ:

— فيه كلمة.

صرخ الرفيق:

— تاني؟!

ساد الصمت.

نظر المدير إلى الرفيق.

نظر الرفيق إلى المدير.

نظرت أنا إلى السقف.

ثم قال المدير للرفيق بهدوء:

— اخرج بره.

خرج .
وبقيت وحدي.
قال المدير:
— هو إنت مستعجل ليه؟
— علشان الشغل.
— الشغل مش هيطير.
— الوظيفة نفسها ممكن تروح.
ابتسم.
— ما هي مش رايحة لحد.
سألته:
— يعني هتوافقوا؟
— إن شاء الله.
— إمتى؟
— لما الطلب يبقى مظبوط.
في اليوم الثالث عشر، كنت قد عدلت كل شيء.
أضفت.
حذفت.
استبدلت.
أعدت الصياغة.
راجعت علاماتِ الترقيم.
وضعت الاسم كاملًا.
رقم البطاقة.
اسم المدرسة.

صفة مدير المدرسة.
الوظيفة.
المدة.
سبب التكليف.
كل شيء.
دخلت إلى المكتب.
وضعت الطلب أمامه.
قرأه.
لم يتكلم.
أعاد قراءته.
ثم رفع عينيه.
قلت:
— تمام؟
— تمام.
— يعني أسيبه؟
— أيوه.
خرجت.
لأول مرة منذ ثلاثة عشر يومًا خرجت من الإدارة والطلب ليس في يدي.
شعرت بخفة غريبة.
مشيت في الشارع كأنني حصلت على حكمٍ بالبراءة، بعد قضاء سنين على ذمة القضية...المناسبة عاوزة احتفال ولو بشوب عصير قصب كبير من أبو عشرين جنيه...

في اليوم التالي عدت لأعرف النتيجة.
سألت السكرتير.
قال:
— المدير مسافر.
— مسافر فين؟
— القاهرة.
— والطلب؟
— معاه.
جلست.
— إمتى هيرجع؟
— لما يبقى يرجع ياسيدي.
بعد يومين عاد المدير.
دخلت عليه.
ابتسم.
— أهلاً يا أستاذ محمد.
— الطلب يا فندم؟
بحث بين الملفات.
أخرج ورقة.
ناولني إياها.
— أراجعها؟
— لا.
فرحت.
قال:

— خلاص.
— تمت الموافقة؟
— لأ.
نظرت إليه.
— أمال إيه؟
— الوظيفة انشغلت.
سكت.
سألته:
— بمين؟
قال:
— ما أعرفش.
ثم عاد إلى ملفاته.
وقفت لحظة.
لم أعرف ماذا أقول.
خرجت.
في الممر كان السكرتير جالساً يلف سيجارة وأمامه كوبُ شاي.
نظر إليّ.
فهم.
لم يسأل.
فقط قال:
— معلش.
ثم أضاف، وكأنه يقدم لي عزاءً في ميت:

— بس الحمد لله... الطلب بقى مظبوط.

نظرت إليه.

ضحكتُ.

لا أعرف لماذا ضحكت.

ربما لأن البكاء كان يحتاج إلى طلب آخر.

وطلب جديد.

وتعديل.

وإضافة كلمة.

وحذف كلمة.

وتوقيع.

وختم.

وموافقة.

١٦

يا أروى...كيف مر كل هذا؟!

سرتُ بأحد شوارع الدقي الهادئة، والمساء الشتوي الحزين ينساب بلونه الأصفر الباهت على الوجـوه والجدران. تتكئ الشمس بوهن على حواف البنايات الأنيقة القديمة كأنها تودّعنا ببطء. لم يكن في ذهني شيء محدد، مجرد خطى عادية لرجل خمسيني اعتاد أن يمشي بلا هدف واضح، ورحلة شهرية من الريف الهادئ لأضواء المدينة المركزية القاهرة، مستغرقًا في ذكريات تلك الرحلات اليومية حين كانت تداعبنا تخادعنا الأحلام، تنقطع أنفاسنا وقتها حماسة، لاهثين وراء الحل الجماعي، مُراقبين من كل مخبرين الأرض

وقتها، وظنُنا أننا خلية سرية تحت أطباق الأرض، لا يعـرف الشـيطان نفسـه أيـن تقـع، أعـداد مجلـة "الانتصار" الفقيرة، المحلقة في الأحلام، ثم ركـل وتلطيش وتلطيم أبينـا القـابع في لاظـوغلي، عـن الاشتراكات والأسماء الحركية ومفاتيحها و..و..و سـقوط الـبيت الكبـير، وسـحنة جورباتشـوف اللعين....صدقني يا أبانا العارف بكل شئ، لم تكن بحاجة لكل هذا الجهد...فكل شئ سقط حتى بدون نسمة هواء واحدة...

حتى استوقفتني امرأة،لم تكن لافتة، بل بالعكس، كان حضورها هادئًا ومألوفًا إلى حـد أربكـني. في الأربعينيات تقريبًا، ترتدي بلوزة بسـيطة وبنطلـون جينز،شعرها القصير المصبوغ بلون كستنائي تتخلله خصلات بيضاء لم تُخفها، بل بدت وكأنها تتباهى بها. نظرت إليّ بثبات، كأنها تعرفني منذ زمن، وسألتني سؤالًا عابرًا عن عنوان ما، لكن الحديث لم ينتهِ عند هذا الحد.

شيئًا فشيئًا، انساب الحديث. كـانت تتحـدث بثقـة غريبة، بنبرة تحمل شيئًا مـن الحـنين وشـيئًا مـن السخرية، وكأنها ترى عالمًا مختلفًا عما نراه،سمعتُ في كلماتها غضبًا قديمًا لم يخمد،وهدوءًا مصطنعًا يُخفي تحته عاصفة.

وحين سألتها عن اسمها، قالت ببساطة: "أروى".

ابتسمتُ مجاملة، لكنّها تابعت، وكأنها تدرك ما يدور في رأسي: "أروى صالح". هي أروى إذا، كيف تاهت نفسي عنك، أم أن أروى سقطت مـن ضـميري،

بسقوط الأحلام التي كنا نمس بها السماء يوما، كيف كان التحول؟ وما هي النقطة البرزخية الزمنية الفاصلة بين عالمين متغيرين تماما، زمان الخلاص الجماعي وزمان انعدام الخلاص بشتى صنوفه، ربما كانت أروى هي ذلك البرزخ، اللحظة الزمنية الفاصلة التي رحلت وبرحيلها سقطت كل الرموز وتأويلاتها والأحلام وأيامها...

تجمدتُ رعبًا في مكاني، بدأت الشك في إدراكي ورؤيتي، الاسم لم يكن عاديًا. كان اسمًا يخص الماضي، يخص حكاية انتهت، أو هكذا ظننتُ. حاولت أن أجد تفسيرًا، مزحة، تشابه أسماء، أي شيء منطقي، لكنها لم تترك لي فرصة للهرب. كانت تنظر إليّ وكأنها تقول: "لا تبحث عن منطق، فقط اسمع"، انصعتُ فلم أعد أبحث عن منطق وراء ما أرى، وأسمع،

تحدثنا طويلًا. عن الخسارات الصغيرة التي تتحول إلى هوّة تلتهمنا، عن الأصوات التي تُخنق حتى تصير صمتًا دائمًا، عن النساء اللواتي يعشن نصف حياة لأن المجتمع قرر لهن ذلك. لم تكن تشرح، بل كانت تستدعي شيئًا في داخلي، كأن كلماتها ليست جديدة، بل كنت أعرفها وأتجاهلها.

الآن، وأنا في الخمسين، في نهاية عام ٢٠٢٥ لم أعد مشغولًا حتى بسؤال أروى عما الذي دفعها للرحيل الطوعي المفاجئ عام ١٩٩٧، ولكن الحقيقة أني خشيتُ خفتُ أن أسالها، الإجابة معروفة مقدمًا، وما الذي دفعك أنت للبقاء؟! الراحلون دائما هم الأنقى هم الأصدق، حدثتها عن اللوعة وهذا الحزن الثقيل

إثر رحيلها المباغت، بعد اجتماع عاصف بالحزب الطليعي العمالي الماركسي اللينيني، كنتِ يا أروى وقتها غاضبة حانقة جدًا.

هلمي يا أروى لمقهانا الأرستقراطي أتذكرينه؟ وحديثك الطويل عن تطلعات طبقتنا الحائرة بين عالمين، عن جبننا، وترددنا، وانسلاخنا عما نؤمن به في الحقيقة، ها أنتَ كلما شقيت ذهبت طوعا لعالمهم الذي تحاربه في الظاهر، وتتمنى أن يقبلك في الحقيقة، أن تكون منه...

يا أروى دعك من كل هذا، قد فات الزمن...

أردتُ يا أروى فقط توديعَك كما يليق بأناقتك... بالطاولات الامعة أكثر مما ينبغي، بحديثهم الرشيق والذي يدور كرقصة متقطعة: كلمة بالإنجليزية، تحية بالفرنسية، ثم استرسال طويل بإنجليزية دارجة ممتزجة بالعامية المصرية، كأن اللغات كانت تتواطأ لتخفي شيئًا لا يريد أن يُقال صراحة.

جلستُ، بعد أن سحبت مقعدها، منحنيًا لجلوسها...لم يتغير فيك شيئا يا أروى، نفس الشعر القصير، نفس الخصلات البيضاء التي لا تعتذر عن وجودها، ونفس النظرة التي ترى ما وراء الأشياء...

انحنت قليلًا نحوي، وقالت:

"اطلب لي قهوة... سادة، نسيت؟!."

رفعتُ يدي للنادل، دون أن أسأله إن كان يراها. لم أجرؤ.

وحين وضعتُ الفنجان أمامها، لم تلمسه فورًا، بل ظلت تحدق في سطحه، كأنها تقرأ ما تبقى من الحكايات فيه.

حولنا، استمر الحديث المختلط، ضحكات خفيفة، كلمات أجنبية تتناثر كزينة، لكن صوتها وحده كان واضحًا في رأسي.

قالت:

"هم يظنون أن الحكاية انتهت."

ثم ابتسمت، ابتسامة صغيرة، بالكاد تُرى.

"لكن الحكايات التي تُروى من الألم... لا تنتهي، هي فقط تغيّر أماكنها."

رفعت أروى الفنجان أخيرًا، ارتشفت رشفة بطيئة، وكأنها تتذوق الزمن نفسه، لا القهوة.

وحين حاولتُ أن أقول شيئًا، أي شيء، كانت قد اختفت.

لا حركة، لا صوت، لا أثر... سوى الفنجان، نصف الممتلئ، وبخار خفيف يتلاشى...وموسيقى المقهى الهادئة تنهي مقطوعة شهيرة ثم تصدح فيروز "الله معك يا هوانا يا مفارقنا،حكم الهوى يا هوانا و اتفارقنا...".